محمد القيسي

محمد الثاني يزف إلى سارا ...

وينفخ في الصور ، يطلع عشب من البحر ..
هذا هو الابيض الساحلي ، المدى ، والكتاب
هو الآن يأتي ويذهب ،
يغفو ويلعب ،
والسيد النبع ..
يلهج باسم الندى والتراب
ويحلم :
عرسك مشتعل ، وجوادك يركض
ان الطفولة تنهض
فاتحة للحساب

وكان على شاطيء ينتهي
أمام ارتعاش الغزالة شمسا وليلا
وكان محمد يصعد تلا
ويأتي الى المسرح البلدي ..
من الجوع والرق ، يطرح أسئلة ،
ثم يمضي وملء يديه الرياح ـ الجواب
فتأخذ منه الكهوف ، المسافات ، والانتظار المسائي،
وجها وظلا
وقال محمد :
ماذا عن البصرة اليوم ؟
كان الخريف يجيء
ووجهك منطويا لا يضيء
وما كان يمزح
في يده النصل والجرح ..

ان محمد يشهد ان زمانا من النفط يأتي ..
على عشب البادية
وينفخ في الصور ،
لكنه يسأل الآن عن هذه الموجة الغازيه
عن الابيض الساحلي ،
عن النبتة الذاوية
لماذا تبالغ في حبها ..
أيها السيد المتأجج فهي بأصفادها لاهيه
وهم خلفك الآن ضد عرار الجزيرة ،
ضد الرؤى الفاعلة ؟!

ويا سيدي تمطر الان كل الجهات
وتنتحر القبرات
حدادا على قحمة ذابله
وتخرج من نومها الاغنيات
وأنت تواصل هذا الرحيل ، وتسأل عبر الليالي الطوال
عن الحب والشمس والبرتقال
وتجدل من ساحل الموت باقة ورد ،
لأيامك الآتيه
وتمتد افريقيه !

آه آسيا
هكذا أقطف التفاح
وأرمم محتوياتي
ما من عقار الا وقابل للبلى
ما من أحد عرفك الا وأحبك
ما من رجل احبك الا وقال آه
آه آسيا
البلاد تطلب أهلها ـ قال الغريب ـ
وانا آخذ في العدّ التصاعديّ حتى الطفولة
بلدا بلدا
ومدينة مدينه
من الخليج الى البحر
من المغرب الى المشرق
ومن مئذنة محدودبة ، الى سنة هجرية
حفلت بأسباب القيامة
أية رعشة تسكن خاصرة الجبل !
والارملة بلا ساعد
في حين
تأتي الطائرات السياحية اليها وتذهب
وانا آخذ في العدّ التشرديّ
من اللحد الى المهد
أية رعشة تسكن الغريب. !

وينفخ في الصور ، لا وجه تلقى
وتركض .. ها أنت تشقى

تشق العنان جيادك ، تدنو بلادك ،
هذا هو الابيض الساحلي ، المدى والكتاب
وبيروت ليست سوى فاصله
وما أنت الا المجلل بالشوك تمشي الى الجلجله
وبين يديك الحراب

– الى أين يمضي معلم قلبي ؟
● الى ياسمين الضحى .
– وما الياسمين ؟
● بلاد مهددة بالخريف ، محاصرة بالرغيف ،
بلاد تراوح أشجارها في دمي ،
واسمها في فمي ،
آه أمي ..
ولا شيىء الا كآبتها والغياب .

هي الآن في عرسها الاشتباكي
تحلم في ثوبها الليلكي
بعمر جديد
هي الان في عرسها
مطر من أمسها
وأرى غدها مهرجان

هي الآن في نومها
حلم من حلمها
راكض في الزمان
هي الآن في أسرها
جارة للنخيل تهزّ ، فيسّاقط الليل في حجرها

بلحاً ناضجا وأمان
هي الساح والوثبة المقبله
وما قالت الريح السنبله
ولكن افريقيه !

وقال الاسير : اسجل موتي بعيد
وأحيا انتظاري .
وألقى من الكوة الواطئه
وشاح المراثي ،
وتابع :
ألقاك سيدتي في مساء جديد
وأنت مداري .
وغنّى لشمعته المطفأه .

– وما يفعل الوقت ؟
● يدني خطاي اليها ..
– وماذا تقول الخطى ؟
● اسألوها
هي الآن واقفة ، عند حد المسافة والحلم ،
واقفة في ارتقاب انفجاري
وترصد موتي الجميل
هي الآن مهري ، وماء السبيل
أسجل موتي بعيد
وهذا طعاميَ عشب ، حصى ، وأريد
لهذا المساء نبيذا ولوزا
ليبدأ في ليلها الساحلي نهاري
وراح يعانق صفصافة عاليه
على باب افريقيه .

سيدة الشجى الاصيل والرحيل
تطلعين من كل نأمة الي ، ومن كل فاصله
فكيف تقولي البعاد ، وكيف تقولي النهاية ؟
حاضرة أنت في الكلمة والدمعة والسيف
حاضرة في اشعاع الصبح القادم ،
في أغاني المساء
حاضرة في المراعي ، وحاضرة في البراري الوسيعه
حاضرة في القلب
حاضرة في الغياب ، في التذكر ، وفي اتساع الجرح
حاضرة في غرف الصدر ، وحاضرة في الشجر الاخضر
حاضرة في الاعشاب والندى والسنابل
حاضرة في الحقول والفصول
حاضرة فيّ وحاضرة في اليوم الآتي
في هذا الشفق ، وهذا الافق ،
وحاضرة في الاشياء
ليس للفراق سلطان علينا ولا للرحيل
يا مبتدأي ومنتهاي .

ويبدأ في عز عافية الموت والاشتعال
ويبدأ من ساعة الصمت والبرتقال
ومن ساحة تغلق الآن أبوابها الحجرية ،
يبدأ من لغة لا ترى في الحصار
سوى أفق لاهب .
انه الآن ينشد اغفاءة هادئه

على صدرها الناحل العود ،
فوق سرير الرمال .

وما كان يمشي وحيدا
ولكن هذا الغفاري ،
يجمع اضلاعه من صحارى البلاد
مراكب جاهزة للرحيل ،
حقائب للقادم المستحيل ،
ويخرج من مزن الاضطهاد

ويعرف :
صفصافة النهر لا ترتدي خوذة ،
والمرابون لا يمهلون
فهم واحدا واحدا يكشفون القناع ،
البنادق تنفر مزدانة بطلاء السيادة ،
والبصرة الآن غافية ،
ليس هذا جلال الشهادة ،
ان محمد يمشي اليها ، يفجر لغم القفار
ويحلم في مهرجان التجول واللون ،
يحلم في لمسة دافئه

ولكن بيروت لا تمهل الزنج ،
بيروت لا تمنح الماء والخبز ،
لا تعرف الحب والعدل ،
بيروت قنّاصة ، وحواجز ضد الزهور ،
وضدّ العبور الى الشرفة الثانية
فياليلَ افريقيه !

سلاماً على اطفالنا المحاصرين
سلاماً على بناتنا الباكيات
سلاماً على الحجر والطريق التي مشينا
سلاماً علىٰ البحر

سلاماً على الاغاني
سلاماً على اصطفاق الموج في الصدرين
سلاماً على أيامنا التي مضت والتي تجيء
سلاماً على الغابة والصحراء
سلاماً على الحديقة التي زرعنا في الحلم
سلاماً على الذاكرة التي تحفظ لنا هذا الحب
سلاماً على القلب
سلاماً على الفقراء والناس المنتظرين
سلاماً على تل الزعتر
وسلاماً على اشقائه المتناثرين في مدى
اللعنة والذبح

سلاماً علينا معاً .

وكان لنعناعة الدار يمشي ..
ويزرع نرجسه فوق خوذته ، حين دوّى المخيم
بالدّبكة الدموية ... كان يزف لسارا البعيدة
سارا الوحيدة ، كانت وجوه الصبيّات سارا
وكان المساء الرمادي ،
كان المدى الذهبي ،
إناء لازهار سارا ، وكان يجمّع أعضاءها
من أغاني الطريدات في حلقات المخيم ، كان
محمد يمشي لنعناعة الدار في يقظة ،
تصل النبعَ بالرمل
والدمَ بالفلّ ،
كانت جميع البيوت
توقّع تهليلةَ الجرح ،
كانت تشكل حلماً الى القمح ،
يوماً الى الصبح ،
كان محمد يسبح في زرقة لا تموت .

١٩٧٥ - ١٩٧٦م